

ألفونصو الحكيم ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية

محمد المكي الناصري

هذا الحديث كأنه عودٌ على بدء، فقد قضينا في غرناطة أياما مهمة تحدثنا فيها جميعا عن التراث المشترك بين المغاربة والإسبان، وكنتُ أفكر من قبل في أن أشارك في الندوة يبحث عن ألفونصو الحكيم، لكنني قبل أن أنتقل إلى غرناطة عدتُ لقراءة كل ما يتعلق بالطريقة التي طُرِد بها المسلمون من الأندلس ففقدتُ شهية الكلام، وشهية البحث ووقفتُ عند ذلك الحد، واليوم ها أنذا أقدم بين أيديكم شذرات من حياة هذا الرجل الذي لقبه التاريخ بألفُونصُو الحكيم.

وُلد ألفونصو الحكيم بطليطلة سنة 1221 م وتوفي بإشبيلية سنة 1284، وقضى في الملك اثنتين وثلاثين سنة. ويذكر الكتاب في تاريخه معلومات تتصل بحياته كملك وجوانب أخرى تتعلق بحياته كعالم ومثقف، ومن أجل أن أوضح أمام أنظاركم الجهد الكبير، والعمل الشاق الذي قام به في خدمة ونقل الثقافة الإسلامية ينبغي أن أوضح الجو الذي كان يعمل فيه كملك في أحوال مضطربة، وتيارات متعارضة، وأقدار لا توافقه في شيء، بحيث كان في حكمه معرّضا لعدم التوفيق.

في هذه البداية أشير إلى ما نقله الباحثون الإسبان من أن هذا الملك في مستهل أمره، وهو لا يزال ولي عهد، كان سعيدا في حياة والده «سان فُرناندُو» وعندما تولى المُلْك تم له الدخول إلى مُرسية بطريقة الصلح، وتسليم ملكها المدينة والأراضي التابعة لها إلى قشتالة بجميع ما فيها، مع الاحتفاظ ببعض المداخليل وبعض الفوائد التي كان ملك مرسية حريصا عليها لنفسه، فعُدَّ هذا الحادث كفأل حسن لحياة هذا الشاب، الذي استبشر الناس بأنه سيكون خير خلف لوالده.

بمجرد ما توفي الوالد «سان فرناندو» أخذ ألفونصو زمام المملكة سنة 1252، وأخذ يفكر على النمط الذي كان يفكر فيه والده في مهاجمة المغرب، والعمل على نقل الحرب إلى إفريقيا، وفي سبيل ذلك نال مراحم البابا «اينو سيسنيو الرابع» و«البابا الخائندرو الرابع»، تلك المراحم التي أعطاها ل «ألفونصو» ولكل من يشارك في حرب إفريقيا. لكن الظروف لم تسمح له بتنفيذ تلك الخطة فارتأى من الأفضل أن يوجه الوجهة إلى المناطق القريبة من إشبيلية ومن مملكة قشتالة، ليستولي عليها أولاً، ثم يعود إلى فتح المغرب.

في هذا السياق بدأ ألفونصو العاشر يفكر في أن يهيء أسطولا كبيرا لهذا الغرض، وأن يقيم ملجأ مضمونا لسفن هذا الأسطول، ولتحقيق ما يريده أمر بالإسراع في إقامة ترسانات عظيمة بإشبيلية، وقد كمل بناؤها سنة 1252 استعدادا لاحتلال المناطق القريبة على أن يشرع فيما بعد في الإغارة على المغرب.

ويقول المؤرخون الإسبان أنه تراجع عن هذه المطامع، حيث اكتفى بالاحتلال السطحي لمدينة سلا، إلا أن هذا الاحتلال لم يدم طويلا لقيام ملك المغرب بهجوم مضاد حرر به نفس المدينة. وفي تاريخنا المغربي يذكر أن الهجوم على سلا كان عام 658 هـ، أي بعد ثمان سنوات من تولي ألفونصو الملك، كما يذكر أن العرائش وقع عليه الهجوم أيضا عام 668 في نطاق تحقيق جزء من البرنامج الذي كان يفكر فيه ألفونصو الحاكم قبل أن يصبح «حكيمًا».

استمر ألفونصو في خطته الهجومية، فدخل في صراع ليس فقط مع المسلمين، ولكن مع جيرانه المسيحيين كذلك، صراع مع «ناقارا»، صراع مع البرتغال بدافع التوسع في أراضي الغير، سواء أكانت تلك الأراضي بيد المسلمين أم بيد غيرهم. وبعد أن توفي الذي كان جالسا على عرش الإمبراطورية الألمانية ولم يبق من أسرته أحد، وكانت لألفونصو عن طريق أمه علاقة بتلك الأسرة أخذ يفكر - زيادة على الممتلكات التي يحتلها في إسبانيا، في أن يصبح امبراطور ألمانيا، بناء على أنه الوحيد الذي له الحق في عرش الإمبراطورية الألمانية، وقد شغله هذا المشروع كثيرا وأخذ يصرف عليه المبالغ الباهظة وظل يتابع هذا المشروع سنوات طويلة من حياته.

هذه الطموحات التي لا حد لها أدت بألفونصو مع الأيام إلى أن يصبح رعاياه غير مرتاحين تجاه سياسته، لأنها طموحات تقتضي مصاريف باهضة، وتؤدي في الأخير إلى فرض ضرائب ثقيلة، وإلى استغلال الشعب بطريقة مزعجة، الأمر الذي أخذ مع مرور الأيام يحدث في الشعب قلقا وتذمرا وتضايقا من حكم هذا ألفونصو. ولما ضاقت

بألفونصو الحيلة وأعوزته الأموال فكر في أن يضرب عملة ذهبية، لكن سرعان ما اكتشف الناس أنها كانت مزيفة بمجرد ما خرجت إلى السوق فزاد ذلك من قلق الرعية وغضبها عليه.

وتكاثرت الشكايات الشعبية ضد ألفونصو فأصبح يعيش تحت ضغوط داخلية وخارجية، ولما تقدم به السن فكر في أن يترك زمام الملك، وأن يكتب وصايا بشأن ولاية العهد، ولكنه أيضا لم يوقف في هذا العمل إذ أصدر وصايا متناقضة ومختلفة، حيناً يعطي ولاية العهد لهذا الشخص وحيناً ينزعها منه ويعطيها لآخر، ولا يخفى ما ينشأ عن ذلك من اضطرابات أسروية وانعكاسات سياسية، مما زاد الأمر ضيقاً وحرجاً، وزاد الأعيان والنبلاء تدمراً وسخطاً من هذه السياسة، سياسة البذخ والإسراف التي لا تتوافق مع ما أصبحت عليه الخزينة من فقر، علاوة على سياسة التردد التي أدت إلى اضطراب الدولة واختلال نظام الملك، فأخذ الناس يفكرون في الاستغناء عن هذا الملك، الأمر الذي شجع ولده «شانسوه» أو («شانزو» بكتابة المغاربة)، على التمرد ضد والده، وإعلان الحرب عليه.

من الصدف أنه في هذه الفترة التي وصلت فيها الحالة إلى هذا الحد كان ألفونصو قد عقد معاهدة هدنة مع ملك المغرب يعقوب بن عبد الحق المريني، فوجه ألفونصو وفداً من بلاده إلى ملك المغرب كي ينجده، ويدعوه إلى أن يحضر بنفسه إلى إسبانيا ليخوض إلى جانبه حرباً ضد ولده الخارج على سلطته، فوجدها ملك المغرب فرصة سانحة ليقوم فيها بأمرين : واجب نخوة الدفاع عن شرعية ألفونصو وواجب مواصلة الجهاد في الأندلس التي أصبحت تتأرجح بين سلطان الإسلام وسلطان المسيحية كل يوم.

فعلاً، استجاب يعقوب المريني في الحين وجاز إلى الأندلس، وكان ذلك هو جوازه الثالث، ولما حل بإسبانيا قدم عليه «الطاغية» (هكذا ينعته المغاربة) ألفونصو، معترفاً بفضله، شاكرًا لنجدته، ومن جملة ما عرضه ألفونصو على يعقوب المريني أنه طلب منه أن يقرضه قرضاً مالياً يستعين به على نفقات الحرب التي يخوضها إذ لم يبق بيده أي مورد مهم، ولتحقيق هذا الغرض عرض على يعقوب المريني أن يرهن لديه تاجه، تاج قشتالة، فما كان من يعقوب إلا أن استجاب لهذه الصفقة وقدم له قدراً مهماً من المال يحدده المؤرخون المغاربة في مبلغ مائة ألف دينار. وكان القرض من بيت مال المسلمين. وحادثة رهن تاج قشتالة قرأتها أولاً في المصادر العربية عند ابن خلدون وابن الخطيب فظننت أن يكون ذلك مبالغة من لدن المؤرخين المسلمين أو من تزيد في

الحديث، لكنني بعد مراجعة المصادر الإسبانية المختلفة وجدتها أثبتت الحادثة وتحدثت عنها بمرارة بالغة بحيث اعتبرتها من أسوء ما قام به ألفونصو في حياته واعتبرتها بالنسبة له نهاية مخزية، ومن الخطايا التي زادت الثورة عليه حدة واشتعالا وكتب هؤلاء الكتاب يقولون : «الملك الذي كان أغنى حكام أوروبا أصبح يستجدي الإعانات، ويطلبها من أعدى عدو لإسبانيا».

وأخذوا عليه أكثر من ذلك استدعاءه يعقوب المريني ليس فقط لنجدته بالمال، ولكن لخوض الحرب معه ضد ولده، لاسيما وقد وجدها يعقوب مناسبة نادرة فصال وجال في الممتلكات التي كانت قد دخلت في حكم إسبانيا، حتى وصل إلى قرطبة وإلى طليطلة حيث عاش فيها الجيش المغربي مرافقا لألفونصو ضد ولده.

وأعود إلى قضية السلف ورهن التاج، فقد كُدت أشكُ فيها لولا أنني واصلت البحث حتى عثرت في مقدمة كتاب المدونة القانونية الكبرى المنسوبة إلى ألفونصو تحت عنوان «الكتب السبعة» والتي نشرتها الأكاديمية الملكية للتاريخ في إسبانيا على نص الرسالة الرسمي الذي كتبه ألفونصو بيده ليحصل على السلف من ملك المغرب يعقوب المريني، وهي موجودة تحت يدي الآن، وعندما ذكرها الذين قدموا تلك المدونة القانونية، وهم علماء ومؤرخون إسبان، نقلوها بمرارة، والسبب الذي من أجله أثبتوه هو التعريف بأسلوب كتابة ألفونصو، لأن الرسالة تعتبر وثيقة بخط يده ونموذجا من «دُون ألفونصو بيريز دي كوسمان» وهو شخص كانت له دالة على يعقوب المريني وتربطه به صداقة متينة فاعتقد ألفونصو أنه خير من يتوسط له عند ملك المغرب للحصول على هذا القرض، مقابل رهن تاجه، مشيرا في رسالته إلى ما في ذلك التاج من جواهر ثمينة ومن قيمة كبيرة. وعن هذا التاج يذكر ابن خلدون وابن الخطيب أنه بقي في قصر يعقوب المريني إلى عهد ابن خلدون نفسه، وأنه بقي فخرا للأعقاب في هذه الأسرة الملكية يتداولونه ويفتخرون بوجوده عندهم.

ويقضي يعقوب المريني في مساندة الفونصو غازيا محاربا وسط إسبانيا إلى جانبه مدة سنتين تقريبا، ولكن شاء الله أن يموت الفونصو وأن يتتصر عليه ابنه «شانسو» وتجتمع عليه أمته المسيحية فاعترف بملكه وأصبح حاكمها دون منازع، غير أن يعقوب المريني - بالرغم من ذلك - لم يضع حدا للمهمة التي ندبه إليها الفونصو الراحل، بجواز رابع إلى الأندلس لمواصلة الحرب ضد «شانسو»، وقد كانت مملكته وقتئذ تفككت بعد الحرب الأهلية القاسية التي اشتبك فيها أنصار الوالد وأنصار الولد حيث اختل النظام وسادت الفوضى، فرأى يعقوب المريني من المناسب الاستمرار في غزو الأندلس، إلا أن «شانسو» الملك الجديد وبطارقته ورجال الكنيسة اقتنعوا جميعا بأنه لا سبيل

إلى الخلاص من يعقوب وسطوته إلا إذا سلموه واعترفوا بمكانته ونفوذه في هذه البلاد، فقررُوا مصالحته، وفعلاً وقع توقيع معاهدة الصلح ويعقوب المريني حاضر في الأندلس هو وولي عهده يوسف ابنه فقد جاءه وفد من قبل شانسو يطلب الصلح وتردد يعقوب في الأمر أولاً لكن في الأخير قبل العرض. وحضر «شانسو» إلى رحاب الملك يعقوب فعرض ملك المغرب عليه شروط العهد والاتفاق. وعن الاستقبال الذي خصصه يقول أحمد بن خالد الناصري في «الاستقصا»: لقيه ب «أحسن مبرة وأتم كرامة»، وقدم «شانسو» بين يدي ملك المغرب هدية هي طَرف من بلاده معللاً قبوله لسائر الشروط. فما هي هذه الشروط ؟ من جملتها أن يسلم «شانسو» المسلمين كافة حيثما كانوا، من قومه وغير قومه، وأن يقف عند مرضاته بالنسبة لجيرانه من الملوك في صداقتهم أو عداوتهم طبقاً لمصلحة المغرب، وأن يرفع الضريبة عن تجار المسلمين الذين يوجدون في دار الحرب ببلاده، وأن يوقف الإفساد بين المسلمين والدخول بينهم من أجل إضرار الفتن، وأخيراً سأل السلطان يعقوب من «شانسو» نجل الملك ألفونصو الحكيم أن يبعث إليه بكتب العلم التي بأيدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الإسلام، هكذا يقول الناصري. فبعث إليه منها ثلاثة عشرة جِملًا، فيها جملة من مصاحف القرآن الكريم وتفسيره كتفسير ابن عطية والثعالبي، ومن كتب الحديث وشروحها كالتهديد والاستذكار، ومن كتب الأصول والفروع واللغة العربية والآداب وغير ذلك. فأمر السلطان رحمه الله بحملها إلى فاس وتحييسها على المدرسة التي أسسها لطلبة العلم.

وفي سنة 684 هـ أصابت السلطان يعقوب المريني وعكة صحية وهو لا زال بالجزيرة الخضراء وتوفي بها رحمة الله عليه يوم الثلاثاء 22 محرم سنة 685 هـ، وهذه السنة تماثل 1285 م. وكانت وفاة يعقوب المريني بعد سنتين من وفاة الفونصو، وحمل يعقوب إلى المغرب حيث دفن بشالة.

هذا الجو المضطرب الذي عاش فيه الفونصو لم يتح له الاستقرار لا بالنسبة لجيرانه المسيحيين ولا بالنسبة لجيرانه المسلمين، وبعد أن كان يحارب الملك يعقوب، ويصول ويجول في مواجهته أول الأمر، بل ويتعدى على المغرب في سلا والعرائش، مهيناً لذلك أسطولا كبيراً، هذا الشخص الذي كان منغمراً في ذلك، هو نفسه الذي يتحدث عنه التاريخ بأنه بلغ من الذكاء ومن التعلق بالعلم ومن الغرام بالثقافة الإسلامية ومن السعي الحثيث لترجمة هذه الثقافة ونقلها وإيصالها إلى الغرب المسيحي وجعلها من ممتلكات الشعب الإسباني، بل وكان يفكر في جعل اللغة القشتالية وهي وقتئذ لا تزال ضعيفة هزيلة - لغة تستفيد من اللغة العربية ونظامها مستعيرة منها كل ما يلقح

به اللسان الإسباني، وذلك هو ما يفسر كون اللغة الإسبانية الحالية تشتمل على حوالي 40 في المائة من الكلمات العربية.

كل هذه الأعمال تمت تحت إشراف الفونصو - كما يقول المؤرخون الإسبان - ولاسيما عمله على إنشاء وخلق لغة مشتركة لشعوب إسبانيا على غرار اللغة العربية، وقد كان المسيحيون كلما اقتربوا من الممتلكات الإسلامية، وكلما دخلت تحت الحكم المسيحي مدن إسلامية، ازدادوا تيقنا وإيماناً بأهمية هذه الثقافة وبسمو هذه الحضارة، الأمر الذي حرك في نفوسهم الغيرة على أن ينشئوا مثل ما كان عند المسلمين من حضارة وثقافة ولغة. ويشير المؤرخون الإسبان إلى أن الفونصو وجماعته رأوا أن اللغة العربية في المدن التي احتلوها لغة حية مكتوبة ومقروءة، لغة علم، وليست عندهم هم أية لغة حية من هذا النوع، فأخذوا يفكرون في تطعيم اللغة القشتالية عن طريق الترجمة، ونقل المعارف الإسلامية إلى لسان الإسبان، ليكون لهم لسان وطني مشترك قابل لاستيعاب الثقافة، ولاستيعاب المعارف والعلوم.

يتفق الباحثون في تاريخ الفكر على أن الفونصو الحكيم لعب دوراً كبيراً في هذه الناحية، وأن طليطلة بلغت في عهده الذروة باعتبارها مدينة العلم والنور، وأن العمل الذي قام به جعله يستحق أن يعتبر من كبار العلماء، وهذا العمل الذي قام به هو السعي المتواصل لتجميع الثقافة الإسلامية من المصادر كلها وترجمتها، ليس فقط الاكتفاء بترجمتها إلى اللاتينية، بل ترجمتها إلى القشتالية، مستعينا بالعبرية وبكل ما وصل إليه العلماء المحيطون به في حاشيته من عرب ويهود، فباشر تحت رعايته عدداً كبيراً من الكتب أكثرها من مصادر عربية، وهذه ظاهرة استغربها الباحثون، إذ في الوقت الذي كان فيه الإسبان يحاربون المسلمين ويدخلون معهم في صراعات مسلحة، في نفس الوقت كانوا يعشقون الثقافة الإسلامية ويزينون قصورهم بعلماء عرب مسلمين ويهود، ويحولون قصورهم إلى أكاديمية لنشر العلم والقيام بالترجمة. وفي هذا النطاق كان الفونصو يغدق من المال والتشجيع والجوائز على الباحثين من العلماء الذين من حوله الكثير مما كان سبباً في فقره في النهاية.

ويقول البعض «أن بلاط الفونصو كان بلاطاً مسيحياً بالإسم، ولكن كانت مسحة المدنية الإسلامية تغلب عليه». ويذكر البعض أنه نفسه أعلن أنه «ملك الديانتين المسيحية والإسلامية» ويرى البعض أنه يمثل إحدى القمم الثقافية الشاخنة في القرن الوسيط، لأنه جمع في بلاطه عدداً من العلماء من مختلف الأجناس والديانات والتخصصات، وبمساعدهم والتعاون معهم تابع المهمة الكبرى في جمع وتنظيم وترتيب

ترجمة لكل العلم والمعرفة المعروفين في عصره مع تسامح كبير، وهذا «التسامح» كان يظهر أكثر في حاشيته في التعاون القائم بين المجموعات التي تترجم وتبحث داخل قصره في الوقت الذي نجده عند ما يحتل بعض المدن يطرد أهلها المسلمين نهائياً ويعمرها بغيرهم، بمعنى أن هذا التسامح لم يكن متبعاً مع الجميع بل كان يحصل في وقت دون وقت وبالنسبة لأشخاص دون آخرين.

كان العلماء المسلمون واليهود يترجمون النصوص العربية والعبرية، والملك يختارها ويكلف غيره بكتابتها بالقسطنطينية، أو يكتبها هو بنفسه، وبعد ذلك يبدل كل ما يمكن ليتدخل هو ليصبح النص المترجم مترجماً على أكمل وجه وأصح تعبير، وهو بنفسه شخصياً يدرس معنى الكلمات، ويستبعد الكلمات التي فيها لبس أو ليست قسطنطينية حقيقية، ويضع لها الكلمات التي يرى أنها تؤدي المعنى الصحيح حسبما جاء في بعض مراجع تاريخ الأدب الإسباني في القرن الوسيط وفي عصر النهضة.

كانت طريقة الترجمة هي تكوين مجموعات تتحدد طبقاً لطريقة ثلاثية : فقيه عربي مسلم، ورَبِّي يهودي، وقسّيس مسيحي، ويشرف عليهم هو بنفسه حتى يتحقق من الدقة والعمق في معطيات الثقافة الإسلامية التي يترجمونها.

من أهم أعمال الفونصو الحكيم المعلمة المتوسطة أو معلمة القرن الوسيط. يقول المؤرخون إنه لا يوجد في القرن الوسيط مايمثلها من هذا النوع. عنوان هذه المعلمة «الكتب السبعة» أثّرت فيها جميع النقط القانونية الجوهرية، وقد تركز عمل ألفونصو في جميع معارف عصره ضمن وحدة ثقافية تشمل القانون والتاريخ والفلك والشعر وحتى الألعاب الرياضية، وكان هو المخطط والموجه لهذه العملية. ومن أجل هذا التوجيه - يقول المؤرخون الإسبان - إنه يستحق فعلاً أن ينسب إليه كل هذا العمل ويقال هو لألفونصو الحكيم. ولقد عقد بعض الباحثين مقارنة بين الفونصو وبين بعض الشخصيات الفرنسية في ذلك العصر مثل «قيلي هارلوا» و«غوتيه دوميت» وفضلوا عمل الفونصو وجهوده على هؤلاء، لأنه استعان في جمع معارف عصره وتدوينها بطائفة كبيرة من العلماء جمعها حوله في ظروف لم تكن عند الآخرين، فهو ملك له مكانة عالية، ولديه سلطة، وعنده مساعدون، وكانت عنده موارد مالية ينفق منها بدون حساب، وكان مُغرماً بالعلم، مهتماً بتجديده وتحريه من الصبغة اللاتينية، حتى يمكن أن يستفيد منه وتشارك فيه جميع الطبقات الاجتماعية.

كتاب الأجزاء السبعة مدونة قانونية، بدأ الفونصو العمل فيه بإشبيلية سنة 1251 وأعانت فيه لجنة من القانونيين ذكر التاريخ أسماءهم من بينهم الأستاذ «جاكوب

رويس» وموتّق لِيُون، «خوان ألفونصو الأستاذ» (رودان)، وفي نفس الوقت يذكرون الجماعة الأخرى التي كانت حاضرة من عرب ومسلمين ويهود، ولا شك أن ألفونصو كان مستعربا وهو وليد طليطلة بعد فتحها. يقع كل مجلد من هذه المعلمة في 600 صفحة على الأقل، أي أن عدد صفحاتها كان يقدر بالآلاف من الصفحات. ولما شرع في إعدادها صرح بأن الغرض من هذا الإنجاز هو تحقيق أكبر جمع وإصلاح قانوني مما كان يرغب فيه والده «سان فرناندو» الذي كان قد بدأ هذا العمل، وكذا مساعدة رجال القانون والملوك الذين سيأتون من بعده، وتوجيههم في صياغة القوانين فيما يستقبل من الأيام، وتمكين الرعايا، بالإضافة إلى هذا وذاك من الوسائل التي يعرفون عن طريقها ما هو حق وما هو قانون.

في جميع أجزاء هذه المدوّنة يتجلى بالخصوص أن الملك ألفونصو له رغبة في أن يختار لكل حالة من الحالات أحسن الأحكام وأكثرها عدلا، ويختار من بين الحلول القانونية الحل الأكثر اعتدالا والأكثر عدلا، هكذا يقولون. وفي هذه المدونة تجلت بين سطورها روح التسامح نحو الأديان الأخرى، ويقول الباحثون الإسبان أن هذه الروح تجلت بشكل مدهش ومستغرب في المدونة، وفي ذلك العصر بالذات، حيث تمت فيها الإشارة إلى الحرية التي يجب أن يتمتع بها المسلمون واليهود في ممارسة شعائر دينهم وفي ممارسة أي نوع من أنواع النشاط الاجتماعي والتجاري تحت الحكم المسيحي.

هذا الموضوع، أي كيف يُعامل المسلمون واليهود مضمّن في نفس هذه المدوّنة، في الجزء الثالث منها، يبتدىء في الصفحة 669 وينتهي في الصفحة 681، وقد استخرجت هذه الصفحات بالفعل رغما عن كونها مكتوبة بالقشتالية القديمة وسعيّت إلى ترجمتها إلى القشتالية الجديدة أي اللغة الإسبانية، وبعد الدراسة والمراجعة وجدتها تتضمن النظام الإسلامي الذي كان معمولا به في معاملة أهل الذمة، فالنظام الذي عقده الإسلام لأهل الذمة أخذه ألفونصو وطبقه على المسلمين وعلى اليهود، بحيث أن تفاصيله كلها تتمشى مع ما قرره الفقهاء. ولولا ضيق الوقت لكنّ عرضت عليكم هذا الجانب بكل جزئياته.

من جملة الموضوعات المهمة التي اهتم بها ألفونصو موضوع التاريخ، فتم تحت إشرافه تأليف كتاب عام عن تاريخ إسبانيا، شرح فيه تاريخ بلاده، ومن جملة ما ضمنه حياة النبي ﷺ ودخول العرب والمسلمين إلى الأندلس ابتداء من نشأة الشعب الإسباني، واستمر يذكر الدول التي مرت بإسبانيا، ثم كتب كتابا آخر أهمّ هو عبارة عن تاريخ عالمي عام، تكلم فيه من بداية الخليقة إلى عصره على الطريقة التي عالج بها

الطبري التاريخ العام. ومصادر هذا الكتاب متنوعة إذ رجع إلى جغرافيين ورحالة، واعتمد على عدة مؤلفات عربية، ومما يذكر الإسبان أنه اعتمد عليه شخص عربي هو ابن علقمة الذي كان مؤرخا مشهورا.

ومن أطف الأشياء التي تستحق لفت أنظاركم كتابته عن مدح إسبانيا على نمط كتابة ابن حزم وغيره عن الأندلس. فقد مدح إسبانيا بأنهارها وسهولها وجبالها، والثمار والأزهار التي فيها، وهذا النوع يعتبر من تقاليد الإسبان سواء أكانوا عربا مسلمين أو غير مسلمين. وفي هذا الكتاب أيضا استعمل حتى القصائد وكلام الشعراء كحجة على قضايا تاريخية على غرار ما عند ابن الخطيب وغيره.

ومن أهم ما اشتهر به ألفونصو كذلك المجموعة الفلكية التي أنشأها حواليه سنة 1277، وهذه الأزياج المشهورة زوّدت الرحالة والبحارة بالمعلومات التي كانوا في حاجة إليها. ويقول «ألدو ميلّي» المستشرق الإيطالي في كتابه عن العلم العربي في الغرب أن هذه الأزياج كانت مفيدة جدا عندما أصبح الرجوع إلى الأفلاك في رحلات المحيط من أهم الضروريات، أي الرحلات التي شرع في القيام بها عقب الاسترداد الإسباني كرحلة «كرستوف كولومب». لقد كان الاعتماد على هذه الأزياج كبيرا لتعيين المركز والاهتداء التام في البحار، وتعرف هذه الأزياج بـ «الأزياج الألفونسية» متضمنة نتائج الأرصاد المأخوذة من طليطلة.

ومن الموضوعات اللطيفة التي اشتغل بها ألفونصو وامتاز بها مما كانت له صلة بتراث الإسلام، تأليفه لمجموعة شعرية تحت عنوان «أناشيد وأمواج عن مريم العذراء». والذين نقلوا هذا الموضوع أشاروا إلى أنه تأثر فيه بالتمط الإسلامي في الأمداح النبوية التي كانت شائعة، فذكر ألفونصو في أمداحه كرامات مريم العذراء وفضائلها ومزاياها، وأصبحت هاته الأمداح تحفظ وتنقل بالموسيقى، وقد بقيت محفوظة حتى الآن مع النوطات الموسيقية الملحقة بها في مخطوطة محفوظة بمكتبة الإسكوريال في مجلدين مع رسم كثير من الآلات الموسيقية التي ظهرت في الرسوم الصغيرة وهي آلات عربية، بل إن صوّر بعض الموسيقين المرسومين في نفس هذه المخطوطة كانت في ثياب عربية. وأمداح ألفونصو هذه موضوعة حوالي سنة 1283، وتتكون من حوالي 420 قطعة ومكتوبة باللغة الغاليسية.

ومن الموضوعات الطريفة التي اهتم بها ألفونصو أيضا فضائل وخصائص الأحجار الكريمة، ألف فيها كتابا باللغة الإسبانية وهو يتحدث فيه عن الجواهر التي يرى أن لها مفعولا سحريا، ذاكرا أن لكل نوع منها تأثيره الخاص ولكل شكل منفعته وبالطبع فإن هذا الكتاب منقول عن العربية.

وكتب ألفونصو كذلك في فن الشطرنج، ويمثل كتابه فيه - كما يقول المستشرقون - تقدما أكثر على بعض الكتب الشرقية لأنه جاء بأنواع جديدة ومبتكرة من طروحات الألعاب المختلفة، واستحدث تركيبات أخرى، ويمكن اعتباره أفضل كتاب في لعب الشطرنج ألف في العصر الوسيط وهو مبني على نصوص أصلية عربية. واهتم ألفونصو كذلك بالرياضات المختلفة التي تحتاج إلى استعمال الأعضاء، والحركات التي تفيد الراحة والهدوء، والرياضات التي تصلح للنساء أو للشيوخ أو حتى للمسجونين أو اللذين يعيشون في أعماق البحار.

كما أمر ألفونصو بترجمة القرآن الكريم وعدد من المراجع الدينية الأساسية.

هذه نظرة مبسطة عن الجوانب التي عمل فيها هذا الملك الحكيم وسط الضوضاء والاضطرابات والضغط التي لا تنتهي، وهو يتابع العمل الثقافي الفكري بهدوء وبهمة، ويجمع من حوله العلماء من مختلف الأجناس وينفق عليهم وكأنه بعد أن أخفق في مشاريعه السياسية وطموحاته الكبرى، التي كان أهمها هو أن ينصب إمبراطورا على ألمانيا دون أن يبلغ هدفه، لأن البابوية كانت ضده، كرس جهوده للمشاريع الثقافية التي لم تكن الكنيسة راضية عنها إذ كيف يقبل من مسيحي أن يقضي وقته ليلا ونهارا في صحبة المسلمين، ويُعنى بترجمة آثارهم ونقلها، ويحاول أن يدخل نماذج من اللغة العربية إلى القشتالية. هذا العمل كله لم يكن موافقا للكنيسة ولا لأهدافها، ومعلوم أن الكنيسة ذهبت، أبعد من ذلك إذ كانت لها أياد في نصرته ابنه ضده لتعود إسبانيا إلى إسبانيته، ولعلكم تلاحظون أن ملكنا يعقوب المريني كان على علم بأن ألفونصو كان يشتغل بالعلم الإسلامي، وأنه قد جمع فيه آثاراً كثيرة، وذلك هو الذي حدا به إلى أن يطلب من ولده عقب موته أن يزود المغرب بآثار المسلمين والكتب التي كانت بيد الإسبان وكانت موجودة فعلا بقصر والده الحكيم ومتداولة بين أيدي حاشيته. ونلاحظ أن الملك يعقوب المريني لم يكتف فقط بالانتصارات الحربية وسعة اليد والسطوة في المغرب وإسبانيا، بل إنه انتهر الفرصة لتزويد شعبه أيضا بثقافة أجداده مستفيدا من هذه العلاقة لإحياء ما ينبغي إحياءه في هذه البلاد، بحيث نجده هو أيضا كانت له ميول ثقافية واهتمامات علمية. وإذا كان ألفونصو حكيما فإن يعقوب المريني كان أحكم.